

الملتقى الدولي: الموروث الثقافي والسياحي

ودوره في خدمة التنمية المستدامة

المحور:

الفوائد الاقتصادية والاجتماعية والبيئية للاستثمار في الموروث الثقافي والسياحي

العنوان:

معايش وأزياء في تراث الشعانية

دراسة سوسيو ثقافية في الأصول والقيم والدلالات

1- الاسم واللقب: بوعلام بوعامر

المؤسسة: جامعة غارداية

الرتبة: أستاذ محاضر (أ)

2- الاسم واللقب: رشيدة لهواجي

السنة الثالثة دكتوراه الأدب العربي قديما وحديثا

أستاذة مؤقتة جامعة غارداية

boualem47@gmail.com

Title:

**Life and fashion in the heritage of Shaambas Sociocultural study of origins,
values and semantics**

Summary:

The theme of this participation is the life ; cultural and tourist heritage of Shaamba; and its role in the service of sustainable development.

1- مقدمة:

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.
وقال أيضا ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا ۚ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

تُخضع ضرورات العيش الإنسان في ذاته المفردة، وفي أناه المجتمعي إلى إكراهات لا بد له من مواجهتها، وهو في طريقه إلى مزاولة واقعه المعيش ورسم معالم غده الأفضل، وعلى قدر ما تكون تلك الإكراهات مغالبة محملة بمعنى المواجهة والمجابهة والقسر، تكون قاموسا اجتماعيا وثقافيا ثريا بالدلالات المتنوعة، والقيم المختلفة الخاصة والعامة. كما أن اللباس بأزيائه المختلفة القارة والمتطورة أحد أهم مظاهر الحياة البشرية المميزة له عن سائر المخلوقات؛ غير أن له من القيم المضافة ما يخرج به عن حيز المعيشة في مفهومها البراغماتي الضيق إلى أفق الدلالة الحركية على معان تتصل بالثقافة والحضارة والفن، وتشده إلى سؤال الأصالة عند السعي إلى التحديث المتبصر الذي لا يرى دعاته ضرورة قيامه على أنقاضها. وقبيلة الشعانبة بوصفها إحدى أكثر القبائل العربية في صحراء الجزائر عددا، ومن أكثرها انتشارا في ربوعها، لها -كسائر المكونات المجتمعية للشعب الجزائري- من أنماط المعيشة، وتنوع اللباس وتعدد أزيائه حسب فئات المجتمع من رجال ونساء، وكبار وصغار، وتنوع المناسبات الدينية والاجتماعية تراث أصيل وغني بالقيم والدلالات، التي تحاول المداخلة دراستها للإجابة عن أسئلة تأصيلية وإجرائية من مثل: ما هي أصول الخصوصيات في المعيشة والأزياء عند الشعانبة ؟ وما منطلقاتها ودلالاتها الاجتماعية والثقافية ؟ وما هو مضمونها الفني والأدبي باعتبار كثير منها كان تيمة وموضوعا لفنون أدبية متنوعة كالشعر الشعبي

والأسطورة والأمثال والحكم ؟ وما أثر إحياء ذلك ودراسته ونشره في إثراء الموروث الثقافي محليا ووطنيا ؟
وما مدى قدرته على المساهمة في تشجيع السياحة، و ما ينبغي على ذلك من عائد اقتصادي، ودفع لحركة
التنمية المستدامة، في ضوء البحث عن مصادر لها قارة، وبديلة عن المصادر التقليدية ؟

2-تأصيل نسبي:

ينتهي الشعانبة في نسبهم البعيد إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن
مضر، فهم من القبائل العربية العدنانية، وهو القول الثابت عند المؤرخين المحققين والنسابين الجزائريين
والأجانب، بخلاف نفر من المشتغلين بالتاريخ حديثا ينسبونهم إلى هلال، ومعتمدتهم في ذلك قرائن لا ترقى
إلى أن تكون أدلة قوية، واستنتاجات غير نصية ولا مباشرة من أقوال قلة من القدماء، وأقل منهم من
المحدثين وعلى كل حال فسليم هو العم الأعلى لهلال.

أما في نسبهم القريب فيردهم النسابة والمؤرخون إلى عوف بن بهثة¹ منتسبين إليه بطريق حصن ثم
علاق؛ وقد دخلت قبائل سليم وفروعها المغرب العربي والجزائر "زمن التغريبة الهلالية السلمية الأولى سنة
443 هـ الموافقة لـ 1051 م، تحت راية رافع بن حماد رئيس فرع علاق بن عوف آنذاك"².

3-أنماط من المعيشة بين البادية والحاضرة:

مارس الشعانبة -كسائر شعوب الأرض عامة، والشعوب العربية خاصة- الحياة وعالجوا مصاعبها
ومتطلباتها في البادية ثم الحاضرة، وكان لهم منها في الطورين كليهما خصائص ومميزات طبعت نفوسهم،
ومازجت أرواحهم، وصنعت أفكارهم، ورسمت آمالهم. وقد كانت حياتهم في طور التبدلي مرآة انعكست عليها
بصدق لمسات الصحراء التي لابتست تضاريسها ومناخها حياتهم العامة والخاصة، وإنما مثلهم في ذلك مثل
العرب قاطبة، ذلك أن " .. هذه الصحراء التي هي آية من آيات الله في أرضه، أو هي باب الفلسفة من هذا
الكتاب الأرضي لم يَغْمُرْها الله بأمة تشربت معانيها وتغلغل في دقانقها، ولا عمت روحها روحها مثل الأمة

العربية، وسل التاريخ يُنبئك، فهو لم يعرف أمة خلعت عليها الصحراء فطرتها وأفرغت عليها إفراغا سابغا غير الأمة العربية³.

كما كان لهم وهم في مسيرة الانتقال من التبدي إلى التحضر حرف وصنائع سعوا بها إلى تحقيق حاجات المعاش الضرورية، فأتقنوها، وأحكموا أمرها، وصاروا فيها سلفا ومثلا يحتذى منها:

1-3 الرعي:

سكنى الشعانبة في الصحراء جعل للرعي حضورا قويا ومميزا في تاريخ الشعانبة الاقتصادي، وذلك لارتباط حياتهم بالجمال، سفينة الصحراء التي لا يعجزها خوض عباب رمالها؛ ولرعي الإبل من الخصوصية والحاجة إلى الخبرة والصبر ما ليس لغيرها من الحيوان، فإذا كان رعي الغنم والبقر قسمة مشتركة أو تكاد بين الأقاليم والبيئات فإن رعي الإبل خصيصة قسمها الله للصحراء خاصة، هذه البيئة البكر المستعصية، والمتمنعة التي لا تبيح مقدراتها وخيرها للرعاة باليسر الذي يجدونه في المراعي القائمة في الغابات والسهول. لذلك كان رعي الإبل عند الشعانبة تجربة رائدة، أكسبتهم خبرات عميقة بالصحراء ومعرفة بمضاربها، ومواطن النجعة والكلا المناسبة، وأعطتهم المبادرة في إطلاق كثير من التسميات على أماكن ومساحات مترامية الأطراف كانت قبلهم غفلا فصارت أعلاما في أطلس صحراء الجزائر وما جاورها، مثرين بذلك المعجم الطبوغرافي للصحراء الجزائرية، ومحافظين في تلك التسميات على ظواهر لهجية: دلالية وصوتية يكاد كثير منها اليوم يعفو أثره، وتستبدل به -أحيانا- تسميات أخرى مستحدثة، لا جذور لها من حيث الأصالة والدلالة.

وقد كان من أثر الشعانبة في ذلك أن استحال كثير المجاهل، والمعامي، والأغفال، معالم سياحية معروفة ومصنفة إقليميا ووطنيا، في انتظار الاهتمام بكثير منها ما زال ينتظر التصنيف والتعريف، كما كان

تلك المبادرات عامل ازدهار وتطوير للسياحة الداخلية والخارجية، يؤكدها يؤمها الزوار اليوم، مشكّلة بذلك قيمة سياحية واقتصادية، وفي هذا المعنى يرد قول الشاعر:

رُبَّ أَرْضٍ مَخُوفَةٍ قَطَعَهَا _____ وَهِيَ _____
 وَمَعَامٍ بِهِمْ تَسَمَّتْ فَصَارَتْ _____ عِلْمًا وَهِيَ قَبْلَهُمْ أَغْفٌ _____
 وَبِقَاعٍ بِقِيعَةٍ عَمَّ رَوْهَا _____ شَدَّ عَنْهَا رِحَالَهُ الْإِمْحَا _____
 صِرْنَ وَاحَا بِهَا خَمَائِلُ فِيهَا _____ كُلُّ خَيْرٍ: مَنَاهْلٌ وَظِلٌّ _____ لَلْ

لقد شكّل رعي الإبل في المحل الأول، ثم رعي الغنم في المحل الثاني، عمود اقتصاد الشعانبة في مراحل متطاولة من الزمن، ووصل عدد رؤوس ما اكتسبه الشعانبة من الإبل والغنم كمّا عظيما، سالت بأعناقها الأباطح والشعاب ويكفي أن نعرض جدولا يجمع ما كان يملكه عروش الشعانبة الثلاثة من ماشية في متليي الشعانبة وحدها في مقارنة عددية بين عدد أفراد العرش، وعدد رؤوس الإبل والماشية في إحصاء يعود إلى 29 من مارس سنة 1896⁵:

| العرش | عدد أفراد العرش | عدد رؤوس الجمال | عدد رؤوس الماشية |
|--------------------|-----------------|-----------------|------------------|
| قصر متليي الشعانبة | 1425 | 268 | 2280 |
| أولاد عبد القادر | 2150 | 1814 | 15220 |
| أولاد علوش | 2210 | 1815 | 32532 |
| المجموع | 5785 | 3897 | 50032 |

إن الأرقام المثبتة في الجدول تبين حجم المساهمة الاقتصادية الكبيرة التي قدمها، ويقدمها الشعانبة في دعم الاقتصاد الوطني، والحفاظ على ثروات يتهددها الزوال، وتُجابه بعامل البدائل غير المنتجة، ولا الملائمة للبيئة والظروف الزمانية والمكانية الراهنة.

إضافة إلى ما سبق، كان نشاط الرعي فرصة سانحة للإنسان الشعانبي، وكتاباً مفتوحاً على الصحراء أمام بصره وبصيرته، رسم له آفاق التعرف على بيئتها، ومناخها، وحيوانها، وواحيها، ومنتجاتها.

3-2 الصيد:

زاول الشعانبة الصيد، تدفعهم إليه إما المنفعة والحاجة إلى لحوم الطرائد، وإما المتعة وممارسة الرياضة؛ مستخدمين في ذلك الحيوانات المكّبة والمدربة على الصيد مثل الفهد والكلب السلوقي، ثم الأسلحة المعدة لذلك، إلى جانب نصب الفخاخ؛ أما الطرائد فكل ما في مطاردته متعة، أو منفعة للاقتناء أو التجارة أو التداوي من أوبد البادية ووحشها، كالنعامة والغزال والأرنب والضبع والضب.

وغير خافٍ اليوم ما للصيد في الصحراء من عائد اقتصادي وسياسي، إذ صارت صحراء الجزائر محجاً لهواة رياضة الصيد نظراً إلى ما تتفرد به من مصايد قل نظيرها في إفريقيا والعالم العربي، وكان للشعانبة سبق تاريخي في ريادة طرقها ومعرفة مجاهلها، وسلوك الطرائد فيها.

3-3 التجارة:

برع الشعانبة في التجارة، التي لا تقل شأنًا عن الرعي في التاريخ الاقتصادي عند الشعانبة، ولا تختلف عنه كثيراً في قيامها على عنصر الحركة، والضرب في الأرض الذي يلائم طبيعة المجتمع البدوي القائم على الحركية وحياة التنقل؛ وقد مارس الشعانبة التجارة بنوعيتها: القارة، والمتنقلة العابرة للصحراء⁶، يلخص إسماعيل العربي هذا النشاط زمناً ومكاناً ومادة بقوله: "عندما يعود الشعانبة الرحل إلى منازلهم في متليلي

في فصل الخريف يقومون ببيع منتجاتهم من الحيوانات والجلود والصوف ومنتجات الألبان وثياب الصوف، ويشتررون في مقابل ذلك ما يحتاجون إليه من الحبوب والشاي والقهوة والمنتجات المستوردة مثل السكر والثياب القطنية والمصوغات إلخ⁷.

وفي نظرة إحصائية إجمالية دالة يشير إلى مقدار ما كان للشعانية من قوة تجارية قارة، تتمثل في استحوادهم على نسبة 80% من مجموع الدكاكين والحوانيت التي كانت توجد في جميع مراكز العمران في الربع الجنوبي الغربي من الصحراء...⁸.

أما التجارة العابرة للصحراء فقد انبسط ظل الشعانية فيها على أقاليم شاسعة من الصحراء، فقد كانت

قوافلهم " ... تسير بانتظام بين مرتفعات الأطلس جنوب وهران وبلاد السودان جنوبا، عبر جراحة [قورارة] وتيديكلت وتوات غربا، وقابس وغدامس شرقا"⁹.

وكان تسيير قوافل هذه التجارة محكوما بنظام محكم، قائم على الاحترافية، ومدى الشعور بالمسؤولية وعنصر الالتزام عند من يؤلى أعباء هذه الرحلة الشاقة، المحفوفة بالمخاطر، توكل فيه مهمة التوجيه والقيادة بناء على مقياس الكفاءة والخبرة والدربة، ويخضع لروح الانضباط الصارم، والطاعة المطلقة للقائد.

ومثل الرعي كان هذا النمط من التجارة قيمة مضافة إلى خبرة الشعانية وتمرسهم بالصحراء، جعلت لهم فيها نفوذا واسعا ف " ... في العهود الغابرة كان الشعانية يسيطرون سيطرة كاملة على تجارة القوافل التي تجري بين شواطئ الجزائر وتمبكتو والبلاد الواقعة على نهر النيجر وقد كانت المناطق الصحراوية الغربية في ذلك الوقت تنقسم إلى مجالين أساسيين للنفوذ يفصل بينهما خط يمتد على وجه التقريب بين عين صالح غربا وغدامس شرقا. فأما البلاد الواقعة في شمال هذا الخط، بينه وبين الزيبان، فهي مجال نفوذ الشعانية ومسرح نشاطهم التجاري، بينما كان الطوارق يسيطرون على النشاط التجاري في المناطق التي تمتد جنوب هذا الخط حتى السودان...¹⁰.

3-4 الفلاحة:

إذا كان الرعي والتجارة قسمة مشتركة بين البدو والحضر لعدم الحاجة فيهما إلى الاستقرار عادة، مع اختلافات في بعض التفاصيل والوسائل، فإن الفلاحة نشاط يتطلب الاستقرار، لما يقوم عليه من زرع وحرث وجني يشكل سيرورة زمنية قائمة على العناية المستمرة بالأرض وغلاتها، لذلك كان مجال الزراعة غالبا الريف، فإن كان في الصحراء فمجاله الواحة التي تتيح للبدو الاستقرار؛ من هنا لم يزدهر هذا النشاط في البدايات الأولى من واقع الشعانية الاقتصادي، حتى كانت مرحلة الاستقرار وظهور الحاجة إلى الزراعة فاستقدموا للقيام عليها عمالا (خمّاسين)¹¹ من مناطق أخرى لاسيما من إقليم توات.

ولئن كان هذا واقع الزراعة عند الشعانية في البدء لقد كانت لهم فيه بصمات ظاهرة لاحقا، وسعي مشهود بعد أن قطعوا أشواطا بعيدة في حياة الاستقرار، فأنشؤوا بساتين وجنات معروشات وغير معروشات، تشكل نواة صالحة لاستنبات مشروع منتجات ومخيمات تخدم السياحة خدمة جليّة.

4-4 الصناعات التقليدية:

قطاع منتج، وحيوي في مجال الحفاظ على الهوية والاقتصاد والسياحة؛ وللمرأة الشعانية فيه حضور قوي ويتمثل غالبا، في صناعة الزرابي والخياطة والتطريز وصناعة النحاس والفضة والأسلحة والفخار وصناعة الجلود والسروج ...

5- فنون خاصة:

برع بعض الفنانين من الشعانية في نحت كَرَب النخل (الكرناف) وتشكيل جذوعها، ونالوا في ذلك شهرة تجاوزت حدود الوطن، إلى جانب الرسم على الرمل.

6- أزياء:

ملابس الشعانية من البساطة والبعد الوظيفي بحيث تدل دلالة صادقة على الصحراء التي خلعت عليها وشيها ، وطبعتها بميسمها لاسيما في ألوانها الغالب عليها الأبيض والأصفر والأزرق الخفيف، وهي الألوان المساعدة على انعكاس أشعة الشمس ومواجهة شدة الحر، غير ان البعد الوظيفي لا ينفي عنها صفة الجمالية، وهي إلى ذلك كله تستجيب إلى الآداب والقيم التي أمر بها الشرع، وأكدها العرف، تستوي في ذلك ألبسة النساء والرجال والأطفال، وتلتقي فيه الأزياء العامة، والأزياء الخاصة المرتبطة بالمناسبات الدينية والمجتمعية، ومن ألبسة الرجال وأزيائهم: العباءة (القندورة)، والعمامة (الشاش)، والبرنس (البرنوس)؛ ومن ألبسة النساء وأزيائهن: والملحفة، و(البخنوق) ...

7- احتفالات وفلكلور:

طالما كانت متلي الشعانية مسرحا لتراث مادي ولامادي مثل (القرقابو، أو الدندون) والشعر الملحون، و(القصبة) والمراجيع التي للشعانية فيها ريادة معروفة، وكانت سابقا مضمارا لـ"عيد المهري"، وهو موسم أو مهرجان يقام في ربيع كل سنة، ثري بفقرات متنوعة من أنشطة رياضية متمثلة في سباق الخيل والجمال، ومعارض للصناعات التقليدية، ويستمر هذا الحفل ثلاثة أيام متواصلة.

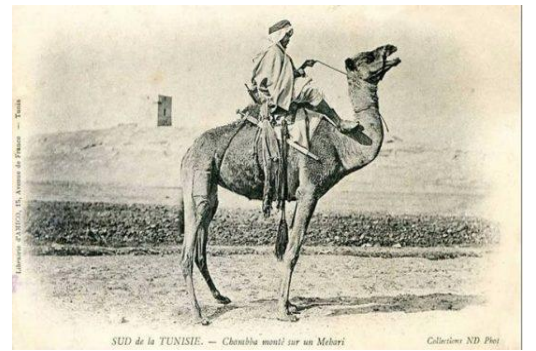
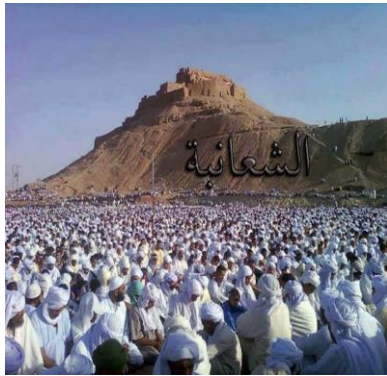
8- آبار وقصور ومخيمات:

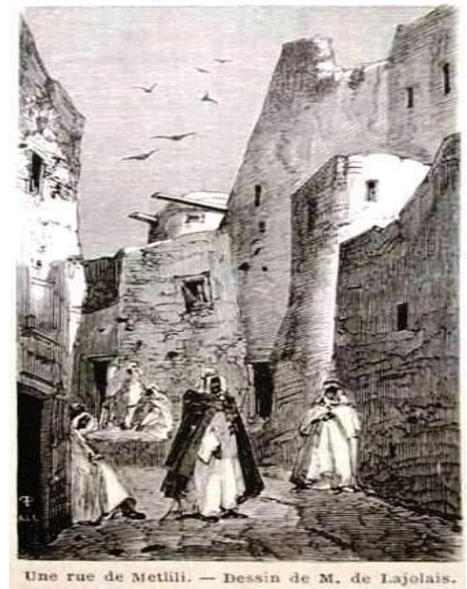
قيام حياة الشعانية على الرعي، ثم الفلاحة حملهم على اتخاذ الآبار التي تولوا هم أنفسهم حفرها، وفي شمالي الصحراء الجزائرية آبار كثيرة احتفروها، منها ما ساعد على قيام تجمعات بشرية ذهبت تتنامى مع الزمن حتى صارت قرى ظاهرة تضاف إلى أسمائها تلك الآبار؛ وقد ارتبطت أسماء شخصيات شعانية بآبار شهيرة تجاوز صيتها أثرها حدود القبيلة، ليرتبط به رخاء الوطن كله، ونعني بذلك حاسي مسعود مدينة الثروة

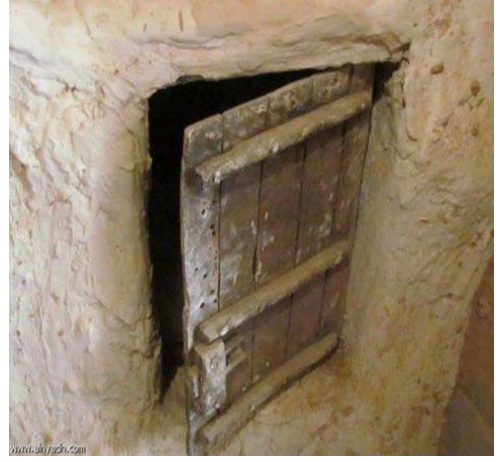
خاتمة:

ليس في حياة الإنسان حدود حقيقية بين ما هو نفعي معيشي، وما هو فني، ذلك أن حياة الإنسان ومكاسبه ومساغيه مرتبطة بظواهر ونوازع نفسية وفكرية وبدنية معقدة ومتداخلة، يستحيل الفصل بينها فصلا بيتا، ويصعب بناء الحواجز بينها، من هنا يكون كل تقدّم من مظاهر الحياة اليومية والتاريخية في واقع الشعانبة المعيش، وتراثهم لوحة فسيفسائية يلتقي فيها النفعي والفني، ويجتمع الثقافي بالسياحي، وينضم التراثي إلى الاقتصادي، ليصبح مشهد حياة ثرية، زاخرة بالعطاء الروحي والمادي، وعامرة بأسباب التنمية الشاملة، ومنابعها المتجددة، يكفي أن تتوفر لذلك الرؤية الاستراتيجية الواضحة، والإرادة الصادقة، والتخطيط المحكم، والاستثمار البشري والمادي الجيد، والدعاية التجارية والسياحية الذكية التي تتكفل بها الإطارات ذات الكفاءة والتكوين الجيد.. ذلك كله من شأنه النهوض بواقع السياحة والاقتصاد في هذه الربوع، لاسيما أن مواطن الشعانبة عموما ومتليبي الشعانبة خصوصا تتمتع من الأمن والاستقرار بما يوفر المناخ المناسب لذلك، قياسا بأقاليم أخرى تأثرت بقلقل واضطرابات قعدت بمسيرة التنمية فيها، وعطلت كثيرا من أسبابها ومشروعاتها.

ملحق بالصور التوضيحية¹⁵:







الباقو: مخزن التمر والحبوب من (قمح، وشعير).



بئر (حاسي) مسعود التاريخية



-
- ¹ محمد سليمان الطيب: موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، مصر، ط.2، 1997 م، ص. 1004. نقلا عن توفيق المدني: تاريخ الجزائر.
- ² عبد الحميد مسعود بن ولهة: أبناء الشعانية ومراحل التطور الحضاري لبلاد الشبكة سكانيا عقائديا وعمرانيا، دار صبحي، متليي الشعانية، غارداية، ط. 1، 2014 م، ص. 25.
- ³ محمد البشير الإبراهيمي: رسالة الضب، قراءة وتقديم: سامي غرمول، دار المعارف الجزائرية، سطيف، ط. 1، 1433 هـ / 2012 م، ص. 17-18.
- ⁴ بوعلام بوعامر: عناوين فضل (لامية الشعانية)، مطولة في مكتبة الشاعر، معدة للطبع، ص. 1.
- ⁵ مختار شنيينة: زربية الشعانية بين رسم الجمل وجز الصوف، دار صبحي، متليي الشعانية، ط. 1، 2016، ج.1، ص. 49.
- ⁶ عبد الحميد مسعود بن ولهة: مرجع سابق، ص. 148-150.
- ⁷ إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 م، ص. 167.
- ⁸ السابق، الموضوع نفسه.
- ⁹ السابق، ص. 168.
- ¹⁰ السابق، ص. 167.
- ¹¹ مستخدم في الزراعة، بأخذ خمس الغلة مقابلا لجهد.
- ¹² بوعلام بوعامر، مرجع سابق، ص. 1.
- ¹³ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط.6، 1997م. مادة (حسي)
- ¹⁴ السابق، ص. 12.

¹⁵ تنويه: غالب الصور المثبتة مأخوذة من صفحتي الأستاذين الباحثين: نور الدين بامون، وعبد الحميد مسعود بن ولهة.